رأي القدس

ازمة الكويت وانعكاساتها الخليجية

■ يتابع الخليجيون، حكاما وشعوبا، تطورات الازمة الكويتية الحالية بقلق شديد، وفضول كبير، لان ما سيتخمض عنها من حلول او نتائج سيكون سابقة، تنعكس بصورة او باخرى، على المنطقة بأسرها.

فالخريطة السياسية الراهنة في الكويت تتكون من ثلاث كتل رئيسية، اثنتان منها تتصارعان، وثالثة تنتظر هوية الفائز في هذا الصراع، اذا ما حسمت الامور لهذا الطرف او ذاك، واذا لم تحسم فان تدخلها سيكون فاصلا.

● الكتلة الاولى: تضم فرع الجابر من الاسرة الحاكمة ويتزعمها الشيخ صباح الاحمد رئيس الوزراء والحاكم الفعلي للبلاد منذ ثلاثة اعوام على الاقل، اعتكف خلالها الامير بسبب مرضه.

● الكتلة الثانية: تضم فرع السالم الذي ينتمي اليه الشيخ سعد العبدالله الامير الدستوري للبلاد بمقتضى نظام الحكم، ويتزعمه الشيخ سالم العلي الصباح، ومجموعة من الشيوخ الاقل اهمية الذين جرى تهميشهم طوال فترة حكم آل الجابر.

● الكتلة الثالثة: تتكون من الشعب الكويتي الممثل في مجلس الامة المنتخب. وهؤلاء يتوزعون بين الكتلتين كل حسب اهوائه ومصالحه. فرئيس مجلس الامة الحالي السيد جاسم الخرافي يميل الى جناح الجابر، ويساند الشيخ صباح الاحمد الذي لعب دورا كبيرا في وصوله الى منصبه الحالي. اما السيد احمد السعدون رئيس مجلس الامة السابق فيؤيد الشيخ سعد العبدالله وجناح السالم نكاية بالشيخ صباح الاحمد الذي اطاح به من رئاسة البرلمان لصالح غريمه الخرافي وبصوت واحد فقط.

الشيخ صباح الاحمد السياسي المخضرم يرى ان الامير الجديد رجل مريض جدا، لدرجة انه لا يستطيع قراءة القسم، فكيف سيدير امور الدولة، ومن الافضل ان يستريح اكراما له، واختيار امير جديد للبلاد، بينما يرى الشيخ سالم الصباح ان هذه الخطوة غير دستورية، علاوة على كونها كسرا لعرف تداول السلطة بين جناحي آل الصباح، ولهذا لا بد ان يتولى الامير الجديد السلطة، ولهذا جرى تحديد يوم غد موعدا لعقد جلسة خاصة لمجلس الامة لتمكين الامير الجديد من اداء القسم الدستوري.

من الواضح ان كل ما تردده وسائل الاعلام الكويتية حول تماسك الاسرة ووحدتها هو نوع من التضليل، والا لتمت تسوية الازمة والصراعات داخل الاسرة بسهولة، ودون اللجوء الى البرلمان، وتعريض الامير الجديد للمهانة والاحراج.

وعندما نقول ان دول الخليج تراقب الازمة، فذلك لان الكويت صورة محسنة لأزمة الحكم وصراعات الاجنحة في هذه الدول، وخاصة المملكة العربية السعودية.

فاذا كانت دول مثل قطر والبحرين قد ثبتت مسألة انتقال السلطة من الامير او الملك الى ابنه، وتردد ان السلطان قابوس وضع ترتيبات خاصة بالوراثة في حال وفاته من خلال تسمية شخص معين والاحتفاظ بالوصية في مظروف مغلق يفتح لاحقا، فان الصورة مختلفة في السعودية حيث ما زال مبدأ التبادل قائما بين الاشقاء ومغلفا بصراع حاد بين الاجنحة المتنافسة، جناح السديريين وجناح غيرهم من ابناء الملك الراحل عبد العزيز بزعامة الملك عبد الله العاهل الحالي.

وبسبب التشابه بين الموقفين في الكويت والسعودية، من حيث صراع الاجنحة، جرى الابقاء على الملك فهد في قمة السلطة لاكثر من عشر سنوات رغم مرضه الشديد، وفقدانه الذاكرة كليا. والشيء نفسه يقال ايضا عن الشيخ جابر الاحمد الجابر امير الكويت الذي بلغ به المرض درجة عدم قدرته على نطق كلمتين لافتتاح الدورة الاخيرة لمجلس الامة (البرلمان).

السعوديون سيطالبون، مثل نظرائهم في الكويت، بفصل ولاية العهد عن رئاسة مجلس الوزراء وتعيين شخص من خارج الاسرة الحاكمة لهذا المنصب، وصراعات العائلة الحاكمة ستظهر الى العلن في يوم قريب جدا، لان العاهل السعودي وولي عهده فوق الرابعة والثمانين على اقل تقدير، ومسألة الرجل الثالث في التسلسل لم تحسم بعد، تماما مثلما هو حادث حاليا في الكويت، فهل سيكون ابن الملك ام ابن ولي العهد، ام وزير الداخلية القوي الامير نايف، أم امير الرياض الطامح الى السلطة، ام من الجيل الثالث الشاب المتعلم من احفاد الملك عبد العزيز؟

ما يحدث في الكويت يمكن وصفه بانه على درجة كبيرة من الاهمية، وحسم الصراع بين الكتل المتنافسة سيكون نقطة تحول رئيسية في المنطقة، قد تؤدي الى تغيير هيكلية الاسر الحاكمة، وتوسيع دائرة المشاركة الشعبية في السلطة.

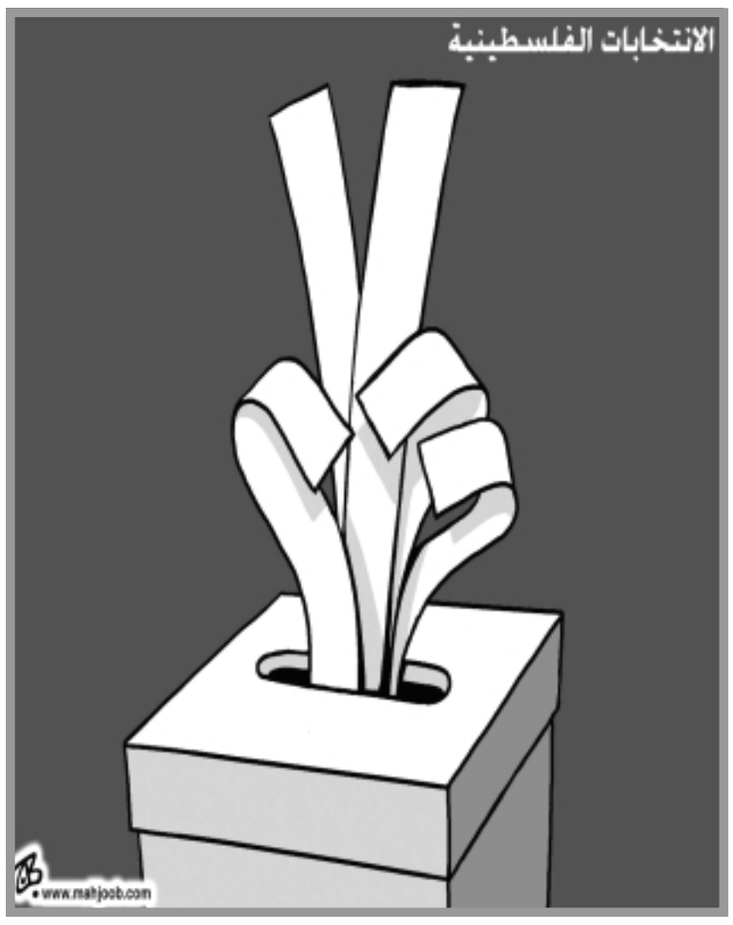

العنصرية الفئوية آخر مبتكرات الأمركة المهزومة

مطاع صفدي *

■ لا يبدو أن الرئيس الأمريكي بوش و(عصابة) مستشاريه من اليمين المتصهين، سوف يغير ويغيرون شيئاً ما من مخططهم الخاص «بالشرق الأوسط الكبير». ليس هناك أية اعتبارات لمجمل الانتكاسات التي مُنيت بها وسائلهم والممارسات العسكرية والاستخبارية، واقنعتها الدبلوماسية المفضوحة للقاصي والداني، وفي هذه المدة المتبقية لرئاسة بوش، لم يعد ثمة امكانية واضحة للتدخل الحاسم في حركة الأحداث العالمية الخارجة عن أية رقابة، حتى من قبل الدول الكبرى، وأمريكا زعيمتها بالذات. لكن كل الجهد المتبقي لإدارة واشنطن يتمسك بالرهان على امكانية السيطرة الاستراتيجية الشاملة على العالم العربي ومحيطه الاسلامي. ويعتبر هذه السيطرة جائزة حكُمه الأهوج يقدمها لمؤسسة السلطة في بلاده، تعويضاً عن كل الخيبات الأخرى التي ارتكبتها إدارته لشؤون العالم، والفضائح القانونية والأخلاقية التي تكشف الغطاء عنها صحافة أمريكا نفسها وقبل غيرها، ثم تغدو أشبه بالقصص الخرافية، وترددها وسائل الإعلام في كل مكان. لكن الديمقراطية الاعلامية النسبية لا تكاد تجد لها معادلاً في الشأن السياسي الرسمي للدولة. فاختراقات القوانين، وفضائح التجسس وجرائم الفساد على أعلى المستويات التي تتابع أخبارها بإيقاع زمني متصاعد، وهي في مجملها تتعلق بطريقة الحكم داخلياً، إلا أنها تنجو دائماً من المحاسبة القضائية، حتى لو عُرض بعضها على المحاكم.

أما في مجال السياسة الخارجية التي شكلت عماد العهد البوشي، فليس من عادة الرأي العام الأمريكي الاهتمام بشؤونها وشجونها، لولا أن هذه السياسة قد (تعسكرت) كلياً في النظرية والتطبيق، وحلت وزارة الدفاع في رسمها وقيادتها مكان وزارة الخارجية. واقتصر عمل هذه الأخيرة على تبرير خيارات الحروب، وتسويق ونشر مراكز النفوذ العسكري في الخارطة الاستراتيجية للمعمورة كلها. فهل أضحت هذه السياسة موضع اثارة ومراجعة على الأقل من قبل النخبة الحاكمة سواء لدى البعض في جناحها الموالي للعهد البوشي، أو في جناحها المعارض له. بمعنى أن مؤسسة السلطة نفسها ربما تتخلى عن ثقافة الامبراطورية واجتياحها الكوني، أو أنها تتنصل من منهج معين لتطبيقها، لم يجلب سوى الهزائم والخسائر من كل نوع، والبحث عن مناهج أخرى، دون التنازل كلياً أو جزئياً عن تلك الثقافة الأسطورية الحاكمة بأمركة القرن الواحد والعشرين.

هذه الأمثلة عن أسئلة المراجعة المطلوبة في الهزيع الأخير من حكم الزمرة البوشية، لا تفيد فقط في فهم التحولات الأمريكية المتوقعة، بل أنها قد تعطي ثمة تفسيراً استراتيجياً لهذا التشبث العصابي بتجذير النفوذ الامريكي في مفاصل التغيير الشرق أوسطي، والحفاظ مهما كلف الأمر، على الإمساك بالدور الرئيسي في تحديد مصائر التغيرات المرتقبة، والمزدحمة على أبواب المستقبل القريب لمختلف أقطار المنطقة. ذلك أن هذه المصائر أمست خطوطها الكبرى مرتسمة على ملامح اللحظات الراهنة من حتمية التغيير المسيطرة في أهم الساحات المتحركة من جغرافية المشرق العربي خاصة. وكانت عقدة الفشل العسكري السياسي في العراق، قد استحوذت على إرادة المخطّط الأمريكي، فجعلته ينقل مركز المبادرة والتفعيل المباشر من بغداد إلى بلاد الشام، وبدءاً من عاصمتها الساحلية بيروت كمدخل متميز تاريخياً جغرافياً نحو بر الشام وعاصمته دمشق. كأنما لم يعد يمكن التحكم في مستقبل السيطرة على المغامرة العسكرية الهوجاء في العراق، إلا في اصطناع أشباه لهذه السيطرة على هاتين العاصمتين. وان لم تكن عسكرية، وبواسطة جيوش احتلال، ولكن باتّباع أساليب حروب (سلمية) محلية متنوعة، وذات أسلحة دعاوية وسياسوية، تستخدم أصولاً شتى من العنف الأهلي والاثني والجهوي.

لقد احتمى التدخل الامريكي السائد في لبنان بحادثة اغتيال الحريري، وانفجار موجة عارمة وغير محسوبة من الغضب الشعبي الذي سرعان ما تلقفته قوى سياسية مختلفة، وحتى متعارضة في دوافعها وأهدافها، وساهمت جميعها في تعبئة تظاهرة شبابية متواصلة ليلاً نهاراً في ساحات بيروت، وشاركت فيها لأول مرة فصائل من معظم الطوائف المسيحية والاسلامية السنية خاصة. وجرى هذا التجييش الهائل بشعارات تصب جميعها حول استعادة استقلال لبنان، وطرد الوصاية السورية المتهمة بهيمنة الفساد والقمع، وتحميلها مسؤولية الجريمة السياسية الكبرى في قتل الحريري. وفي غمرة هذه «الفوضى» العارمة تحققت جملة من الأهداف، شكلت نوعاً جديداً تماماً من الانقلابات غير المسبوقة، حتى في أكثر أقطار المشرق تعرضاً لأمثالها، ولكن تحت التوصيف العسكري والفوقي دائماً.

قد لا تكون هذه الأمثولة من «الفوضى البناءة» مدبرة في فصولها كلها، إلا أن التدخل الأمريكي الذي سرعان ما سفر عن وجهه، استطاع أن يستثمر وقائعها ويوجهها ببراعة استخبارية وتكتيكية ملحة بوسائل الإثارة الجماهيرية وتوظيف التحشيدات الشعبوية في تحقيق العناصر المطلوبة لإنجاز انقلاب سياسوي شامل، كما لو كانت قوى عسكرية ومادية. وبلغ هذا التوظيف مرحلة التغيير السلطوي بفرض انتخابات متعجلة جاءت بأكثرية عددية إلى المجلس النيابي، وهي منتمية إلى خليط الأحزاب والفئات المؤلفة لما سمي بميثاق الرابع عشر من آذار (مارس)؛ وهي التي تضم مختلف الأطياف والشخصيات المشاركة في حكم الدولة طيلة مرحلة ما بعد اتفاق الطائف، والمتعاونة دائماً مع سلطات الاشراف السورية، هذا بالإضافة إلى بعض ممثلي التيارات المسيحية المبعدة عن السلطة في تلك المرحلة.

حدث كل ذلك خلال فترة الربيع ومطلع الصيف من العام الماضي. وخُيِّل للمنتصرين الجدد ـ القدامى في غالبيتهم ـ أنهم لم يكسبوا فقط الجولة الأولى من الانقلاب المشبَّه أحياناً بالمعجزة التاريخية من قبل بعض أبواق الدعاية الاعلامية، بل أنهم أصبحوا سادة الدولة، ومعها مستقبل البلاد كلها، وإلى أبعد مدى، بات رهناً لمخططاتهم؛ واعتقد أولو الأمر بينهم أن جميع (الآخرين) غير المشاركين، وربما المعارضين، قد ألقوا بأسلحتهم، قابلين للاستيعاب والاستتباع. ولم يكتشفوا أن هؤلاء (الآخرين) ربما كانوا يمثلون نصف الشعب أو أكثر بما يتمتعون به من الغالبية العددية، فضلاً عن تغلغلهم في معظم أجهزة الدولة وقطاعها الأمني العسكري.

لا شك أن فريق العمل المكلف بالاشراف على مجرى الانقلاب البيروتي، القابع في مكاتب السفارة الأمريكية في (عوكر)، ضاحية بيروت، قد أخذته نشوة النصر السياسي السريع من الضربة الأولى، مثلما انتشى واحتفل رئيسهم الأعلى بوش من على ظهر بارجة، قبل سنوات قليلة، بالاكتساح العسكري للعراق خلال عشرة أيام فقط. ومن ثم كرّ مسلسل الهزائم من كل نوع، بعد أشهر قليلة، إلى اللحظة الراهنة، حيثما بات ينشغل قادة البنتاغون بإعداد ما يدعونه استراتيجية الانسحاب، أي القرار المنظم بل الفوضوي بالأحرى، على غرار ذلك التقهقر البائس والمشين لفلول العسكر والدبلوماسيين والعملاء الفزعين، من عاصمة فييتنام، في ذلك المشهد التاريخي الرهيب الذي لن تنساه ذاكرة الحروب العدوانية ونهاياتها الكارثية.

ليس من العجيب أن تتكرر فصول تلك الحروب ونهاياتها الكارثية، متنقلة بين أطراف العالم الثالث، شرقه وغربه، ما دام نموذج العدوان المنتج لها، نسخاً عن بعضها، يظل ثابتاً واحداً في كل تمرين له. إنه نموذج التسلط الأحادي، الذي يكرس أعلى أشكال العنصرية، كما بلغت في تطورها أحدث تقنية عصرية لها، متمثلة في تشكيل السياسة الامبراطورية على نمط الشركات الاحتكارية الكبرى عابرة القارات، وكواحدة في عدادها، تقود مثيلاتها وتنقاد بها عبر عواصف العولمة وأوبئتها المهاجمة لمجتمعات المعمورة. تلك هي قمة السيطرة الأحادية وقد تطورت إلى عنصرية مطلقة، تسوِّغ تسلطها بأوقح إيديولوجيا (شيطانية) تطالب بحقوق استثنائية لأصحاب التفوق المتفرد بأسلحة المال والتدمير الشامل. واليوم تخوض الأمركة معركة بقائها في الشرق الأوسط، بنشر أوبئة العنصرية ما بين مكونات مجتمعاته، كلاً على حدة بحسب معطياته التاريخية والسكانية. بعد أن ترجمت احتلالها العسكري للعراق بإثارة مختلف نعرات الأقوام والأديان والمذاهب بحجة الفيدراليات والديمقراطية التعددية، عازمة على ألا تترك العراق إلا وقد تفكك كيانه، واستتبت فيه كل أسباب الصراعات الهالكة المهلكة ما بين الهويات المغلقة ضد بعضها باصطناع الفوارق وتضارب المصالح المضخمة. ثم عندما يقع الانقلاب اللبناني تسارع الأمركة إلى اختطاف كل مقدمات الإيجابيات المفترضة، الواعدة بتكافؤ فرص المواطنة المشروعة لكل أطياف المجتمع، وتشجع من جديد منطق الغالبيات والأقليات والمحاصصة في الحقوق السياسية؛ تقسم سيادة الوطن إلى سيادات فئوية متناحرة حتماً فيما بينها.

ديمقراطية الأمركة المهاجمة لشعوب الشرق الأوسط الكبير وليس لأنظمته الحاكمة كما تدعي، ليست سوى وباء العنصريات الفئوية المفككة لكل كيان إنساني وحضاري قائم. ذلك هو الدرس العراقي، ثم اللبناني، والسوري والايراني على الطريق.

* مفكر عربي مقيم في باريس

مؤتمر السعودية على هامش مؤتمر مكافحة الارهاب

د. مضاوي الرشيد *

■ حدثان شهدتهما العاصمة البريطانية منذ يوم الاثنين 16 كانون الثاني (يناير). الحدث الاول تمثل بقدوم وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل لحضور مؤتمر مكافحة الارهاب والذي موله النظام السعودي واحتضنه احد مراكز الابحاث المختصة بالامن والدفاع في العاصمة لندن، تقاسم رئاسة هذا المؤتمر الوزير السعودي والذي افتتح المؤتمر شارحا الجهود السعودية في مجال القضاء على الارهاب وتطرق للحلول الامنية والثقافية التي طبقت في المملكة منذ انخراطها في مشروع الحرب على الارهاب واختتم المؤتمر الباحث الامريكي انتوني كوردسمان والذي تعتمد عليه السعودية دوما في مخاطبة الجمهور الامريكي بدءا باعضاء الكونغرس. اثبت كوردسمان من خلال محاضراته ونشاطه البحثي انه موسوعة متنقلة كل صفحاتها تصب في مصلحة تبرئة النظام السعودي من اي تهمة قد تلقيها الصحافة الغربية والامريكية بشكل خاص على النظام السعودي. وبعد كلمة الفيصل الافتتاحية والتي عرضت بشكل سريع تطورات الحالة الامنية ونجاحات النظام السعودي جاءت كلمة كوردسمان الختامية لتفصل الانجازات وتضفي على الخطاب الدبلوماسي السعودي شرعية اكاديمية ربما تكون اكثر اقناعا من الخطاب الاول. حاول الخطاب السعودي وخطاب كوردسمان تمييع الارهاب عندما تمت الاشارة الى انه يهدد العالم بأسره وهذا ليس بالصحيح اذ ان هناك دولا اوروبية لم تتعرض له وربما لن تتعرض له في المستقبل.

وكذلك هناك الكثير من الدول في امريكا اللاتينية والجنوبية والتي لم تشهد انواع الارهاب التي شهدتها الولايات المتحدة واوروبا ومنطقة الشرق الاوسط وآسيا. اتى مؤتمر الارهاب هذا بعد عام من المؤتمر الاول والتي حصل في الرياض في شهر شباط (فبراير) من العام المنصرم دعت حينه السعودية الى انشاء مجمع عالمي تحت مظلة الامم المتحدة لمكافحة الارهاب ولم يكتب لهذه المبادرة النجاح لاسباب عدة. لذلك جاء مؤتمر لندن هذه السنة كمحاولة فردية تحت مظلة النظام السعودي ليس لنقل آخر التحليلات المتعلقة بظاهرة العنف السياسي بل لتزف للحضور الانجازات السعودية في هذا المجال. وبما ان الحرب على الارهاب ليست كالحروب التقليدية والتي تنتهي عادة باستعراضات عسكرية ويناشين تعلق على اكتاف رموزها لذلك تأتي سلسلة المؤتمرات هذه كخطوة عملية لاستعراض الانجازات التي تحققت خلال فترة الحرب على الارهاب. ولكن جاء حدث اعتقال بضعة اشخاص في الرياض واكتشاف معمل لصنع المتفجرات ليعكر صفو المؤتمر ويشكك في مصداقية النجاح المزعوم. ولكن لا بأس ببعض التشكيك اذ انه يبرهن حجم المجهود المبذول ويطمئن اجهزة الامن الغربية والسلك الدبلوماسي والمؤسسات الاقتصادية التي ارسلت مبعوثيها لحضور المؤتمر السعودي ان الحرب على الارهاب قد اوشكت على الانتهاء. الطفرة النفطية التي تشهدها السعودية حاليا تعتبر من وجهة نظر هذه الشركات والمستثمرين الغربيين فرصة ذهبية لن تعكرها انفجارات هنا او هناك اذ ان بقاء البترودولار في المنطقة ليس من الامور التي تحملها الاقتصاد العالمي والغربي بشكل خاص. فالتهافت الغربي على هذه الطفرة يقوم على قدم وساق خاصة وان هناك قوى اقتصادية اسيوية جديدة فرضت نفسها على الساحة العالمية والتي لم يكن الغرب متعودا عليها في تعامله مع طفرات منطقة الخليج السابقة وبالاخص طفرة السبعينات حيث كانت له حالة احتكارية واضحة لم تنافسه فيها اي قوة خارجة عن نطاق الولايات المتحدة واوروبا. اليوم الوضع يختلف اختلافا كليا عن تلك المرحلة السابقة. اراد الجميع اسدال الستار على هذه الحرب المبهمة والتي قد تقف حجر عثرة فيوجه الحرب القادمة والتي مهد لها مؤتمر آخر تزامن مع المؤتمر السعودي.

الحدث الثاني في العاصمة البريطانية تمثل باجتماع بعض اعضاء مجلس الامن الدائمين لمناقشة ملف ايران النووي وفرص تحويله الى مجلس الامن. لم ينته المؤتمر والاعضاء المجتمعون الى نتيجة حاسمة في الموضوع الايراني. ولكن تم تجنيد وزير الخارجية السعودي وانخراطه في المشروع الجديد والذي قد يأتي تحت مظلة «الحرب على ايران» وهو مشروع غربي بحت ولكن لن يكتب له النجاح الا بتجنيد العناصر المحلية في المنطقة والتي جاءت تصريحات الفيصل للصحافة الغربية لتصب في هذا المضمار. خلت تصريحات الفيصل للصحافة البريطانية من الاشارة الى انجازات الحرب على الارهاب والمؤتمر المعد له لتتطرق للخطر الايراني المتمثل بتطوير الاسلحة النووية بغض النظر عن كون هذا المشروع يهدف الى غايات واستعمالات سلمية قد تحتاجها ايران في المستقبل.

اظهرت هذه التصريحات رغبة واضحة في تناسي موضوع الحرب على الارهاب من منطلق طي صفحتها وفتح صفحات جديدة ربما تكون اليوم اكثر الحاحا من منطلق غربي بحت.

يبدو واضحا وجليا ان الآلة الاعلامية والدبلوماسية الغربية بمساعدة العناصر المحلية تعد العدة لمرحلة قادمة. انخراط دول الخليج وعلى رأسها السعودية في خلاف حول الملف الايراني النووي والتي عبرت عنها تصريحات الفيصل يأتي في مرحلة تبدو المنطقة فيها اكثر ثراء وسيولة مادية وقدرة تراثية من ذي قبل. يستطيع الخلاف مع ايران او حتى اي نوع من الاستنزاف البطيء التي قد تحتضنه مياه الخليج وتكون مسرحا له ان تمتص الفائض من البترودولار الحالي. يبدو هذا الفائض وكأنه الشغل الشاغل للغرب حكومات وشركات ومؤسسات استثمارية وعسكرية اذ ظهرت سلسلة من المقالات التي تقترح السبل الكفيلة بامتصاص هذا الفائض المحلي وتحويله بطريقة دائرية تعيده الى الغرب تحت مظلة الحفاظ على التوازن في الاقتصاد العالمي والعدالة الاقتصادية. الغرب اليوم يدفع الثمن الباهظ للطاقة التي يعتمد عليها اقتصاده ويشتريها بأسعار قد لا يتحملها اقتصاده في الامد البعيد لذلك ومحتاج لان تعود امواله المدفوعة لحكومات المنطقة ثمنا للنفط الى مصادرها الاصلية عن طريق اعادة شراء المنتجات والخبرات الغربية.

من اجل ان يحصل هذا يحتاج الغرب الى امرين: اولا نجاح الحرب على الارهاب والتي كانت موضوع المؤتمر السعودي في لندن هذا النجاح يضمن استمرارية العلاقات الاقتصادية مع المنطقة ونجاح المشاريع الاقتصادية الاستثمارية في الخليج بالذات. ثانيا يحتاج الغرب الى بعض القلق المحلي والشعور بالخطر والذي يصوره وكأنه سيأتي من ايران هذه المرة. لا يليق للمنطقة ان تشعر بالامن والاسترخاء ولكنها تخضع لمحاولة مدروسة وجادة من اجل ان تستبدل هذا الاسترخاء بحالة تشنج دائمة. ومع الاسف خلال الخمسة عقود الماضية شهدت المنطقة منظومات تهدف الى تعريف «العدو» وتحديد خصائصه وخطره لم تكن المنطقة حكومات وشعبا قادرة على الانخراط في تعريفه بل كانت تستلم هذا التعريف من الخارج. صورت الولايات المتحدة الخطر الشيوعي سابقا وكأنه العدو المهدد لاستقرار المنطقة ثم جاء دور ايران بعد الثورة لتتصدر تعريف العدو فجندت الدول الصغيرة والكبيرة على ضفاف الخليج المقابلة لايران في مشروع التصدي للخطر الجديد.

وبعد ايران جاء دور العراق والذي كان الجبهة الاولى في الحرب على ايران فصورته الآلة الغربية وكأنه الوحش الجديد وعندما وقع هذا الوحش في الفخ المنصوب له في الكويت تحققت التنبئوات الخارجية.

جاءت الحرب على الارهاب لتحتل مرحلة انتقالية فصلت بين مرحلة العدو الخارجي (الشيوعية ثم ايران وبعده العراق) وبين المرحلة القادمة. كانت هذه الحرب همزة وصل تحافظ على حالة التشنج الخليجية والتي تسعى القوى الغربية على المحافظة عليها لانها وحدها تخدم المصالح الاقتصادية والعسكرية الخارجية.

فكان المؤتمر المتعلق بملف ايران النووي ممهدا لمرحلة جديدة تعاد فيها صياغة ايران على انها دولة معادية وان اسلحتها النووية ستوجه في المستقبل الى منطقة الخليج العربي.

لابد من طرح السؤال التالي من يشكل خطرا على من في منطقة الخليج؟ ايران تستطيع ان ترصد من شواطئها القواعد العسكرية الامريكية والترسانة العسكرية التي تزين هذه الشواطىء من الشمال الى الجنوب. بينما ترصد الشعوب الخليجية المشروع النووي والذي هو في طور التأسيس على الشواطىء المقابلة هذا بالاضافة الى سبعين مليون ايراني تصورهم الآلة الاعلامية المحلية على انهم يتربصون بالبلاد ويحضرون لها المؤامرات.

هذا التصور بعيد جدا عن الواقع وربما انه لا يعشش الا في مخيلة الانظمة وبعض منظريها. علاقة ايران مع دول الخليج علاقة تختلف من دولة الى اخرى. فبينما تتبنى اليوم الكويت الخطاب التصادمي مع ايران من خلال بعض الشخصيات الاعلامية نجد ان الامارات مثلا تفضل الاتصال الاقتصادي والعلاقات التجارية الحميمة على خطاب العداء والصدام.

اما عمان فتفضل الاسلوب الهادىء المتروي المعهود في السلطنة والذي يتسم بشيء من التروي في موضوع الخطر الايراني المزعوم. وقطر تبدو وكأنها هي ايضا تفضل الانفتاح الدبلوماسي على ايران كبديل لحالة التشنج والتي قد بدأ التحضير لها. تبنت قطر ايضا الانفتاح الثقافي على ايران مؤخرا وقد ظهر هذا بوضوح من خلال تواجد دور نشر ايرانية تعرض النتاج الديني والفكري الايراني في معرض الدوحة للكتاب والذي اقيم في شهر كانون الاول عام 2005. اما علاقة البحرين مع ايران فهي علاقة حساسة جدا اذ انها ذات ابعاد تاريخية واجتماعية ودينية وربما تكون من مصلحة الطرفين التعاطي مع المرحلة القادمة بحذر شديد. تبقى لدينا العلاقة السعودية الايرانية والتي عبرت عنها تصريحات الفيصل الجديدة المتعلقة بالملف النووي الايراني. اظهرت هذه التصريحات مدى استجابة السعودية لتعريفات الخطر على الخليج والذي امسكت الولايات المتحدة بزمامه منذ نصف قرن. لا يهم النظام السعودي تطوير اي منظومة امنية او ارضية مشتركة مع ايران تساعد على حل معضلة امن الخليج. طالما ان هذا النظام يفضل بشكل صريح وعلني اناطة مهمة هذا الامن بالقوة العظمى اي الولايات المتحدة سيظل منخرطا في مشاريع هذه الاخيرة وتعريفاتها. ربما ان هناك حالة عداء ومواجهة ايديولوجية بين الولايات المتحدة وايران في الوقت الحاضر ولكن لماذا تكون السعودية الطرف الفعال دائما في اعطاء حروب الولايات المتحدة بعدا محليا يساعد في شرعنة مثل هذه الحروب؟

وربما للمواجهة الايرانية الامريكية الحالية بعد يتجاوز المنطقة ليظهر مدى انخراط روسيا ودورها وعلاقتها الخاصة مع الغرب بشكل عام والولايات المتحدة بشكل خاص بعد الحرب الباردة. من المعروف ان روسيا تقف خلف المعرفة التكنولوجية التي تساند المشروع النووي الايراني وهذا من الامور التي يجب على روسيا وامريكا حلها بعيدا عن معطيات الخليج وثروته النفطية. ولكن هيهات لهذه المنطقة ان تكون بمعزل عن اللعبة الدولية والتي لا تنجح عادة الا بعد عملية جادة تؤدي الى انخراط الجهات المحلية والتي قد تصل بالمنطقة الى مرحلة خطرة للغاية.

جاء المؤتمر السعودي للارهاب في لندن ربما ليسدل الستار عن حرب تم استهلاكها وابتذالها حتى وصلت الى حدود خيالية وجاءت تصريحات الفيصل على هامش مؤتمر اعضاء مجلس الامن لتفتح صفحة جديدة تكرس حالة تشنج بدأت ملامحها الهستيرية تتبلور بشكل واضح. مع الاسف تعتاش الانظمة المحلية والهيمنة الخارجية على حالة التشنج هذه.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

سورية: علم مظلوم!

ميشيل كيلو

■ ربما كان العلم السوري أحد أكثر رموز الوطنية تعرضا للظلم في سنوات السياسة السورية الأربعين المنصرمة، التي عومل خلالها باحتقار شنيع، تجلى في اختفائه وبروز علم آخر هو علم البعث، مثلما تبدى في استبدال النشيد الوطني بنشيد البعث، حتى أن المواطن نسي علمه ونشيد بلاده الوطني فيما نسي، ونشأت أجيال لا تعرف ألوان علم لبلادها وكلمات نشيدها.

ذهبت ذات يوم إلى مصيف سوري يقع المنزل الذي حللت به قبالة قيادة الشرطة فيه. لاحظت وأنا على شرفة المنزل أن العلم فوق المركز يشبه خرق تنظيف الأرض، المسماة مّساحة في اللسان الشعبي، وأنه ممزق وبلا لون، وأنه لا يخفق على السارية بل يدور حولها، لأنه ببساطة قطعة قماش بالية وقذرة مضى على ربطها بالسارية زمن طويل، نسيها خلاله رجال الشرطة، الذين يبدو أنهم فقدوا منذ وقت طويل عادة رفع العلم في الصباح وتحيته بكل ما يستحق من احترام وتوقير.

قصدت المخفر طالبا مقابلة الضابط المسؤول. بعد أكثر من استنطاق عن حاجتي عنده، سمح لي بالدخول على مقدم يجلس وراء طاولة هائلة عليها هواتف كثيرة، وقد وضع يديه أمامه كمن يستعد لاستجواب مواطن مسكين. حييته فرد همسا وباقتضاب ما افترضت أنه الرد، ثم سألني: نعم، شو بدك. قلت: العلم. قال: أي علم: قلت: الذي على السارية، هل هو علم سوري؟ رد بصوت مستفز: وأنت ما دخلك في الأمر، سواء كان علما سورية أم أمريكيا؟. قلت: دخلني جدا، هذا علم بلادي ورمزها، وأريده أن يكون بكامل حجمه ونظيفا، ليستطيع أن يخفق مزهوا بنفسه. لقد أقلقني أمره عندما رأيته البارحة واليوم، وعرفت أنكم نسيتموه طيلة ربما عشرة أعوام، بينما العلم الأمريكي يخفق نظيفا وبكامل مساحته على سيارات أبناء المسؤولين وشركائهم من تجار اللاذقية وحلب، الذين يفردونه على مقدمات سياراتهم، ويربطون به رؤوسهم وهم يتسابقون ويزعجون الناس في شارع المصيف الوحيد.

لا حاجة لسرد مزيد من تفاصيل اللقاء، فقد طردني بجفاء بعد أن اتهمني بالمزايدة على وطنية رجال الأمن والقانون، الذين يضحون بحياتهم في سبيل أمثالي، وقال إن العلم يتغير في مواعيد دورية، وأنني يجب أن لا أدس أنفي في ما لا يعنيني، خاصة وأنه لن يسمح لي بالقول: إن جماعة العلم الأمريكي من بنات وأبناء المسؤولين والتجار.

خرجت تتقدمني صورة خيالية للأطفال المائة في مدرستي الصفصافة وحصان بيت خضور الابتدائيتين أواخر الأربعينيات، ثم لتلامذة مدرسة جبلة الإعدادية الأربعمائة أوائل الخمسينيات، وتلامذة مدرسة التجهيز فجول جمال الثانوية السبعمائة في اللاذقية وهم يشكلون كل صباح طوابير منظمة أثناء رفع العلم السوري على سارية أمام مدخل الصفوف في باحة المدرسة الداخلية الواسعة. كان علما نظيفا، يأتي به الموجه مطويا، وحين يربطه بحبل مشدود إلى سارية ويفرده بحركة رشيقة تدعوه للارتفاع والخفقان في الأعالي، نتابعه نحن التلامذة برفع رؤوسنا معه وإطلاق حناجرنا الفتية بنشيد الوطن: حماة الديار عليكم سلام.

شعرت بالحزن وأنا أقارن الماضي بالحاضر. وتحول الحزن إلى مرارة، عندما تذكرت تعميما أصدرته جهة رسمية جدا يوم 18 نيسان من أحد الأعوام، يقول: فاتنا البارحة أن نذكركم أن السابع عشر من نيسان هو يوم الجلاء. لتدارك الأمر وتنظيم بعض الاحتفالات... الخ. برق عندئذ في ذهني سؤال: هل بهدلة العلم وعيد الجلاء والنشيد الوطني ورموز التاريخ السوري الحديث سياسة مقصودة؟ وهل كلام مدير الناحية صحيح حول وجود عقوبات لمن يذكر بها أو يطالب باحترامها؟ لقد غاب تاريخ هذا الوطن وراء تاريخ نظام مسحه مسحا منظما ومتعمدا، أراد أن لا يكون لسورية غير تاريخ واحد هو تاريخه، فحمّل الوطن أسماء بعض قادته، كأن الأوطان يمكن ـ أو تقبل ـ أن تنسب إلى أشخاص، وكأن القادة الحقيقيين يرفضون الانتساب إلى أوطان لا تحمل اسمهم!.

... وأخيرا، وبعد طول إهمال، تذكر النظام أن الوطن ليس مجرد قطر، وأن اسمه سورية، وأن له علما ونشيدا وطنيين. هكذا، امتلأت فجأة واجهات بيوت تقع على شوارع رئيسية بأعلام سورية، وترددت أصداء النشيد الوطني في بعض الساحات، واختفى علما البعث ونشيده، رغم الدلالة الرمزية المهمة لاختفائهما، وقول مواطنين كثر بوجود تضاد بين علم سورية وعلم البعث والنشيد السوري ونشيد البعث، يؤدي إلى غياب أحدهما بمجرد حضور الآخر، واستنتاجهم أن الرجوع إلى سورية والتذكير برموزها هو بداية نهاية البعث ورموزه، مع أن العلم أعيد إلى مكانه في سياق محدد يساوي بين النظام والوطن، وأعيد إلى الواجهة بوصفه علم النظام لا الوطن، وأن إعادته كانت بقصد استخدامه بطريقة تبعده عن وظيفته الأصلية كرمز وطني، فبينما كان تجاهله يؤكد في الماضي انتماءه إلى مرحلة انقضت، يعني تبنيه اليوم أن الوطن نفسه لم يعد موجودا، وأن النظام حل محله وتماهى معه بالكامل، وفي هذا ما فيه من إهانة له واستغلال لرموزه لغير الغرض الأصلي منها، فالقصد الأصلي من العلم أن يكون لوطن، والقصد من سلوك النظام الأخير تجاهه أن لا يكون له، بل للنظام الذي ابتلعه وأخذ مكانه، وصار وجوده رهنا به وحده.

ثمة تشوه خطير يشوب علاقة النظام بالوطن ورموزه، بدأ مع أواسط الستينيات واستمر بأشكال مختلفة إلى اليوم، جعل النظام أكثر أهمية من الوطن في الحقبة الماضية، وألغى الوطن لمصلحته في الحقبة الراهنة، تأكيدا على علاقة التنافي بينهما، المثبتة والتي لا تحتاج إلى تأكيد أو برهان، بدلالة مواقف النظام من داخله، ومن حرية وحقوق مواطنيه.

يعود العلم إلى مكانه، بكامل جسده وبهائه، ليحجب هذه المرة حقيقة خطيرة هي ابتلاع النظام للوطن. لكن العلم لن يلعب هذا الدور، لمصلحة أي نظام، وستبقى له رمزيته وكرامته، إذا ما قرر السوريون جعله رفيقا دائما لهم، ورفعوه على شرفات منازلهم، وعرفوا بناته